

أبو الحسن الندوي

غارة التتار على العالم الإسلامي

الاسلام
معمجة
وظهور

المختار الإسلامي
للطباعة والنشر والتوزيع
ص . ب . ١٧٠٧ - القاهرة

BP 165

N22

1979

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية
١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

غارة التتار واسبابها الحقيقية في ضوء القرآن :

واجه العالم الاسلامى فى القرن السابع الهجرى كارثة يندر نظيرها فى تاريخ العالم ، وكادت تقضى هذه الكارثة على شخصية العالم الاسلامى ، وهو زحف الوحوش التتار الذين تقدموا نحو الشرق كجراد منتشر ، وسيطروا على العالم الاسلامى كله .

والمعروف ان السبب فى هذه الكارثة ، هو خطأ ارتكبه السلطان علاء الدين محمد خوارزم ، وذلك انه امر بقتل التجار التتار الذين دخلوا بلاده لممارسة التجارة ، ولما ارسل اليه جنكيز خان سفيرا يسأله عن سبب قتل التجار ، قتله ايضا ، فاشتعل جنكيز خان غضبا ، وقام بحملة هوجاء على مملكة خوارزم شاه ، ثم على عالم الاسلام كله .

ولكن اذا تدبرنا فى ضوء ذلك القانون العام الخالد لنتائج الأعمال والأخلاق ، وازدهار الأمم وانحطاطها الذى أشار اليه القرآن ، ولاسيما ما ذكره فى بدء سورة الاسراء من تدهور بنى اسرائيل وافسادهم فى

(1) فصل كتبه المؤلف فى « اردو » لكتابه « تاريخ دعوة وعزيمة » ونقل اكثره الاستاذ سعيد الاعظمى الى العربية .

الأرض ، وعلوهم وتمردهم وما جر ذلك الى زحف الملوك الظالمين ، وتسلطهم على بنى اسرائيل وخراب المسجد الأقصى ، يبدو لنا ان السبب الحقيقي في هذه الفتنة الكبرى ، والمحنة التي أصيب بها العالم الاسلامي ، ليس ان يقترب ملك أو حاكم من خطأ في التدبير والسياسة ، فيتدفق سيل عرم من المحن والبلاء ، ويفاجئ العالم الاسلامي ، وتصاب الأمة الاسلامية بهذه الفتنة العمياء - التي لم تكن تتوقعها ولا تستحقها - لمجرد ان يخطئ فرد من افرادها .

هذا وكانت الغارة الصليبية الأفرنجية تتعاقب على تلك الحواضر الاسلامية ، التي كان السلطان صلاح الدين قد استردها بعد تضحيات ضخمة ، وقد فشت امراض واوبئة ومجاعات شديدة نتيجة لهذا الانحطاط الخلقى ، والانحراف الإداري ، وفي سنة ٥٩٧ هـ حدثت مجاعة في مصر فما فاض فيها النيل ، وتزلزلت أرض مصر بمنازعات الملكين العادل والأفضل ، حتى أشدت الغلاء بأرض مصر ، فهلك خلق كثير جدا من الفقراء والأغنياء ، ثم أعقبه فناء عظيم حتى حكى الشيخ أبو شامة في الذيل :

« ان العادل كفن من ماله في مدة شهر من هذه السنة نحواً من مائتي ألف وعشرين ألف ميت ، وأكلت الكلاب والميتات فيها بمصر ، وأكل من الصغار والأطفال خلق كثير ، يشوى الصغير والداه ويأكلانه ، وكثر هذا في الناس جدا حتى صار لا ينكر بينهم ،

اذا حملنا نبراس القرآن في يدنا ، واستعرضنا اوضاع المسلمين الخلقية والدينية ، والمدنية والسياسية في ذلك العصر تحقق لنا كالشمس في رابعة النهار ، ان هذه الحادثة المشؤمة لم تكن مفاجأة ، وانما هناك أسباب أكثر عمقا واصالة مما ظنه الناس وذكروه ، ولكي نبحث عن هذه الأسباب العميقة الاصلية يجب ان نتأخر الى سنين عديدة من وقوع هذه الكارثة ، وندرس باجمال اوضاع الدول الاسلامية ومراكز الثقافة والمدنية والمجتمع في ذلك العصر .

اوضاع مركز الخلافة والعالم العربي في هذا العصر :

ان الملكة الأيوبية توزعت بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي في سنة ٥٨٩ هـ بين اولاده وافراد أسرته ، ولكن هؤلاء لم يستخدموا مؤهلاتهم وكفاءاتهم في أداء هذه الأمانة التي آلت اليهم ، شأن كثير من

فلما فرغت الاطفال والميتات غلب القوى الضعيف
فذبحة واكله (١) .

واستمرت هذه الحال وفقا لسنة الله في الارض ،
وظلت الانذارات السماوية ، والاحداث الجسام تحذر
الناس ، وكانت كفيلا بان تبعث الناس على التوبة والانابة
الى الله ، واصلاح احوالهم « وحدثت في نفس هذه
السنة زلزلة عظيمة ابتدأت من بلاد الشام الى الجزيرة
والروم والعراق .. واخربت محال كثيرة من طرابلس
ونابلس ، ولم يبق بنابلس سوى حارة السامراء ،
ومات بها وبقرائها ثلاثون الفا تحت الردم .. ومات
أمم لا يحصون ولا يعدون ، حتى قال صاحب « مرآة
الزمان » : انه مات في هذه السنة بسبب الزلزلة نحو
من الف الف ومائة الف انسان قتلا تحتها (٢) والله
أعلم .

هذا ، وقد تفاقم الشر في مركز الخلافة (دار
السلام بغداد) ، وسيطرت عليه مظاهر الابهة الملوكية
والسلطان الاعمى ، وتفطلت نفوذ الخدم والحشم في
قصور الخلفاء ، وبلفت الثروة والمدنية ذروتها ، ولا
يمكن ان تصور ما كان يمتلكه الخدم والماليك الذين
كانوا لدى الخلفاء من المال والعقار .

ويكفى ان نذكر على سبيل المثال ، ان علاء الدين
الطبرسي الظاهري ، وهو ممن اشتراهم الخليفة
الظاهر ، كان يحصل له من املاكه التي استجدها نحو
ثلاث مائة الف دينار سنويا ، وكانت له دار لم تكن
ببغداد مثلها ، وكذلك مجاهد الدين ابيك الدويدار
المستنصري ، وقد ملك جزيل الاموال من العين ،
والرقيق ، والدواب ، والعقار ، والبساتين والضياع ،
ويتعذر وصف ما انفقه من قناطير مقنطرة من الذهب
والفضة ، والجواهر التي جهز بها اولاده وبناته في
ليالي الزفاف ، كما ان الفراش الصلاح عبد الفنى بن
فاخر المتوفى ٦٤٨ هـ ، وكان شيخ الفراشين بدار
الخلافة ، كان يعيش مع خلوه من العلم عيشة الملوك ،
بينما كان مدرسو المدرسة المستنصرية في هذا العصر
وهم من كبار علماء بغداد بوصفهم يدرسون في اكبر
جامعة اسلامية فيها ، لا يتقاضى الواحد منهم اكثر من
١٢ دينارا شهريا .

وبجانب ذلك نجد ان ٤٠٠٠ دينار ينثرها خادم
للشرايى على مجد الدين ابيك المستنصري ، المعروف
بالدويدار الصغير عند زواجه من ابنة بدر الدين لؤلؤ
صاحب الموصل ، وان ٣٠٠٠ دينار اعطاها الشرايى
للأشخاص الثلاثة الذين اتوا بطائر من الموصل .

ولكن ندرك مدى نفوذ هذه المظاهر الكاذبة ،
والتظاهر بالفخفة والابهة الملوكية يجب ان نعرف ان

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٦ .

(٢) ايضا ص ٢٧ .

وفي نفس هذه الأيام كان التتر يعيشون بكرامة فارس وتركستان ، ويأتون عليهما من كل جانب وكانت أبصارهم شاخصة الى بغداد ، أكبر مركز إسلامي في ذلك العهد ، يتحدث المؤرخ الشهير ابن كثير عن استهلال سنة ٦٢٦ هـ بما يأتي :

« استهلت هذه السنة وملوك بني أيوب مفترقون ، مختلفون » ، وظلت بغداد دار الخلافة الإسلامية مركزاً للاضطراب والفساد ، ولم يتمكن الناس من السفر للحج ، ولا استطاع الخليفة تفسير كسوة الكعبة الشريفة ، التي قد جرت عادة خلفاء الإسلام من قديم بتغييرها ، بين ٦٤٠ هـ و ٦٤٣ هـ ، وبقيت جدران الكعبة عارية عن الكسوة الى ٢١ يوماً ، فتشام به الناس .

في سنة ٥٧٥ هـ جلس الخليفة الناصر لدين الله على عرش الخلافة ، وطالت أيام خلافته الى أكثر من ٤٦ سنة ، وهي مدة طويلة لم تيسر لأحد من الخلفاء العباسيين ، ولكنها أظلم عهد في تاريخ الخلافة العباسية ، وقد ذمه المؤرخون وتناولوا أعماله وأخلاقه بالنقد اللاذع ، يتحدث عنه المؤرخ ابن الأثير ، فيقول :

« وكان قبيح السيرة في رعيته ظالماً ، فخرّب في أيامه العراق وتفرق أهله في البلاد ، وأخذ أملاكهم وأموالهم ، وكان يفعل الشيء وضده ، فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها في رمضان

الموكب التي كانت تخرج في مناسبات العيد والتتويج كانت تشغل الناس ، حتى أنهم كانوا يتناسون أنفسهم ، ويتشاغلون عن أداء الصلوات ، وتستطيع أن تقيس ذلك بالموكب الملكي ، الذي خرج يوم عيد الفطر سنة ٦٤٠ هـ استمر الى الليل ، وصلى الناس صلاة العيد قبل نصف الليل قضاء (١) ، وذكر في « المسجد المسبوك » أن العساكر في عاشر ذي الحجة سنة ٦٤٤ هـ خرجوا الى ظاهر البلد ، وصلوا صلاة العيد وقت غروب الشمس ، وأما تقبيل الأرض بحضرة الخليفة مرات عديدة ، فمن الأمور المألوفة ، وكذلك تقبيل اليد وعتبة باب النوبي ، وحافر الخيل والأرض والرغام .

« وقد تميز هذا العصر بكثرة المصادرات ، وتفشي الرشوة وعزل كبار الموظفين ، والقاء القبض عليهم ، وبيع ممتلكاتهم ، وتفاقم أمر الباطنية والشطار والعيارين ، واشتداد النزاع الطائفي والتفكك الخلقي ، والانصراف الى الملاهي والقيان والتكاثر في الأموال » (٢) .

(١) الحوادث الجامعة أخبار سنة ٦٤٠ هـ .

(٢) استفدنا في هذا الفصل من مقال « عصر الشرايين ببغداد » للاستاذ ناجي معروف المنشور في مجلة « الاقلام » عدد محرم سنة ٨٦ هـ .

كل سنة ، وكان يحفظ القرآن مواظبا على الصلوات في أوقاتها الا ان المستعصم لم يكن بصيرا بتدبير الملك على ما رواه ابن كثير ، وكان فيه لين وعدم تيقظ ، ومحبة للمال وجمعه .

وفي سنة ٦٤٢ هـ استوزر الخليفة المستعصم بالله محمد بن العلقمي ، ولكنه لم يكن وزير صدق ولا مرضى الطريقة ، فاضطرب نظام الحكومة ، ولما وقعت الحرب العظيمة بين اهل السنة والرافضة في سنة ٦٥٥ هـ « نهبت فيها الكرخ ومحلة الرافضة ، حتى نهبت دور قرابات الوزير ، فاشتد حنقه على ذلك ، فكان هذا مما أهاجه على ان دبر على الاسلام واهله ما وقع من الأمر الفظيع الذي لم يؤرخ أشجع منه منذ بنيت بغداد » (١) .

وبالرغم من أن التتار كانوا يتقدمون نحو بغداد ، وكان الخطر التتاري يقرع الأبواب ، كانت « جيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة لا يبلغون عشرة آلاف فارس ، وهم بقية الجيش كلهم قد صرفوا عن اقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد ، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحزنون على الاسلام واهله ، وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمي الراضى » (٢) .

فبقيت مدة ثم قطع ذلك ، ثم عمل دور الضيافة للحجاج فبقيت مدة ثم ابطها ، وأطلق بعض المكوس التي جدها ببغداد خاصة ، ثم أعادها ، وجعل جل همه في رمي البندق والطيور المناسب وسراويلات الفتوة فظل الفتوة في البلاد جميعها ، الا يلبس منه سراويل يدعى اليه ، وليس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة ، فأجابه الناس بالعراق وغيره الى ذلك ، فكان غرام الخليفة بهذه الأشياء من أعجب الأمور ، وكان سبب ما ينسبه العجم اليه صحيحا من أنه هو الذي اطمع التتر في البلاد وراسلهم في ذلك (١) .

توفي الخليفة الناصر لدين الله سنة ٦٢٢ هـ ، وخلفه المستنصر بالله ، وكان جميل الصورة حسن السريرة جيد السيرة كثير الصدقات والبر والصلوات ، محسنا الى الرعية بكل ما يقدر عليه ، فكان نموذجا للخلفاء الصالحين في كثير من خصائصه وعاداته ، ولكنه - مع الأسف - لم يجد فرصة للتنظيم والاصلاح ، وخلفه ولده المستعصم بالله في سنة ٦٤٠ هـ وكان المستعصم صحيح العقيدة متدينا يظهر عليه خشوع وانابة لم ينقل عنه أنه عصى الله بغمه ، ولا بفرجه ، ولا شرب مسكرا ، ولا أخل بصيام الاثنين والخميس من كل شهر ، وكان يصوم شهر رجب من

(٢٤١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠١ .

(١) تاريخ الكامل ج ١٢ ص ١٨١ .

« واهتموا بالانقاعات والمكاسب ، واهملوا النظر في المصالح الكلية ، واشتغلوا بما لا يجوز من الامور الدنيوية ، واشتغلوا بظلم العمال ، واشتغلوا بتحصيل الاموال ، والملك قد يدوم مع الكفر ، ولا يدوم مع الظلم » (١) .

القسم الشرقي من المملكة الاسلامية :

وكان ملوك الخوارزم منفردين بالحكم في الجزء الشرقي للعالم الاسلامي ، قامت دولتهم ذات الشوكة على انقراض المملكة السلجوقية في آخر القرن الخامس الهجري ، وكان العالم الاسلامي كله خاضعا للحكم الخوارزمي باستثناء مصر والشام ، والعراق والحجاز ، والمنطقة السلجوقية الصغيرة الواقعة في الشمال الغربي لآسيا الصغرى ، وكان علاء الدين محمد خوارزم شاه (٥٩٦ - ٦١٧ هـ) اعظم ملوك الاسرة طموحا ، واعلاهم همة ، واكثرهم فتحا وانتصارا ، وهو اكبر ملك مسلم واقواهم في عهده ، يتحدث عنه المؤرخ « هيرلد ليمب » في كتابه « جنكيز خان » فيقول :

« كان السلطان محمد خوارزم شاه متربعا على عرش الملك في قلب البلاد الاسلامية ، وكانت رقعة ملكه تمتد

(١) مقال الاستاذ ناجي معروف « عصر الشرايبي ببغداد »
« الاقلام » ع محرم ١٢٨٦ هـ .

كان المستعصم رجلا صالحا حسن السيرة والفكر ، وكان يحرص على اصلاح الأوضاع ورفاهية البلاد ، ولكن فساد الناس واضطرابهم وفساد رجال الحكومة ، بلغ مبلغا لا يؤثر فيه الا من رزق الارادة القوية ، والشخصية العبقريية ، ومن يستطيع ان يقف سدا منيعا في وجه الفساد ، ويتغلب على الأوضاع السيئة ، ولم ينفع في مثل هذه الحال الا العظماء الذين افتتحوا عهدا جديدا ، واسسوا حكومات جديدة في التاريخ .

ولقد تكرر في التاريخ ان آخر افراد اسرة حاكمة ، وآخر حاكم في مملكة آخذة بالانحطاط كان يتصف بالصلاح والتقوى ، غير ان تلك الاسرة او المملكة كانت قد وصلت الى آخر نقطة من الانحلال والتدهور ، وكان الفساد قد تفاقم والكأس قد طفحت ، فلم يكن هنالك من يحول بين الحكومة وبين نهايتها الاليمة التي كان يفرضها قانون السماء ، وتقتضيها طبائع الاشياء ، وشاءت الاقدار ان يعتبر ذلك الرجل الاخير مسؤولا عن نهاية الحكومة في أسرته الحاكمة بالرغم من انه كان اكثر صلاحا وديانة ، واحرص على اصلاح الفساد من سلفه الماضين .

وقد كان عدد الصالحين مشتغلين بالعلم والتدريس والعبادة كما كان عدد منهم معتزلين في الزوايا والمساجد ، ولكن الفساد كان قد استحوذ على طبقة الحكام والمترفين ، يقول المؤرخ ابو الحسن الخزرجي يصف اهل العراق يومئذ :

من ثغور الهند الى بغداد ، ومن بحر الخوارزم (آرال) الى خليج الفرس ، وكان مسيطرا على الممالك الاسلامية كلها عدا دولة الأتراك السلاجقة الذين انتصروا على الصليبيين ، وأسرة السلاطين من ممالك مصر ، وكان السلطان محمد امبراطورا بالنظر الى مكانته ، وبالرغم من أن الخليفة العباسي الناصر لدين الله سخط عليه ، ولكنه كان يعترف بقوته ، ان الخليفة في بغداد بعد ما تجرد عن كل سلطان دنيوى عاد مجرد رمز دينى ، شأن البابوات في رومة » (١) .

أما المؤرخون العرب ، فانهم لا يشيرون الى موضع ضعف وعيب شخصى كبير في سلوك محمد خوارزم شاه وأخلاقه ، بل أنهم يعترفون بتدينه ، وحسن عقيدته وشجاعته وتصلبه بوجه عام ، ولكن الذى لا خلاف فيه ، أنه بذل جميع مواهبه وطاقاته في القضاء على الحكومات الاسلامية الصغيرة والكبيرة ، حيثما وجدت في هذا الجزء الشرقى الواسع أنه اضطر السلاجقة الى التأخر والأنسحاب الى آخر حدودهم في جانب ، كما أنه ظل يحارب الفُوريين في الشرق والجنوب في جانب آخر ، واضطروهم الى الانحصار في جزء محدود ، وأن خيرة عناصر الفروسية والنضال في ايران وتركستان ، قد أئختنتها الحروب الطاحنة المتواصلة ، التى لم تكد تنتهى ، فكان الجو الحربى

(١) جنكيزخان ص ١٤٧ .

يسود المدن والاقاليم الخصبة الفنية وعلى مشاهد أهلها في كل حين ، وقد اجتمعت غنائم البلاد المفتوحة ، وحاصلات الاقاليم الخصبة ، وتأنق الصناع في الصناعات ، وادوات الزينة ، فبلغت بذلك كله المدنية أوجها ، واجتمعت جميع عوامل الفنى والجدة والرأفاهية والأنتصارات وما يتبعها من ترف وبطر .

ومن الصعب العسير أن يوجد حديث عن الأدواء الخلقية ، التى كانت تعانىها الحضارة والمجتمع ، في كتب التاريخ التى تدور حول البلاط الملكى ، والسراى ، ورجال الحكومة ، وأن مظنة هذا الحديث هى كتب المشائخ الصوفية ، والمصلحين الاجتماعيين ، وكتب المواعظ ، التى اكتسح معظمها السيل التتارى ، ولا يسعنا أن نحمل ما صرح به المؤرخ المسيحى « هيرلد ليمب » فى كتابه « جنكيز خان » على مجرد التعصب الدينى والمبالغة ، أنه يقول :

« أن العالم الذى كان يعيش فيه المسلمون كان عالم الحرب والجلاد ، وكان لا يخلو من شغف بالفناء والموسيقى ، ومن الطرب والاهتزاز . لكنه رغم هذا الظاهر كان يعيش فى قلق واضطراب ، فكان الممالك والعبيد يحكمون مكان الملوك والسلاطين ، وقد بالغ الناس فى جمع الأموال والثروات ، وقد انتشرت الأدواء الخلقية والمؤامرات السياسية ، وكان زمام الأمور فى يد أولئك الذين كانوا ينهبون الرعية ،

بدء ، كعقاب الهى بقيادة ملكهم « جنكيز خان » (١) نحو الجزء الشرقى للعالم الاسلامى ، ايران وتركستان حتى وصلوا الى بغداد التى اسلفنا ذكرها ، واخيرا قاموا بتدميرها وابادة اهلها سنة ٦٥٦ هـ ، « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا ان الله شديد العقاب » (٢)

ان الدافع القريب لهذا الزحف التتارى ، فى عالم الاسباب ، هو ان جنكيز خان بعث الى خوارزم شاه رسولا يقول له : انك تحكم رقعة عريضة كما اننى املك مملكة واسعة ، فاذا قامت بين المملكتين علاقات تجارية ، وسمح للتجار بتبادل التجارات بين البلدين كان ذلك فى صالح البلدين ، فقبل ذلك خوارزم شاه ، وقامت العلاقات التجارية ، وبدأ التجار يتبادلون اموال التجارة بين البلدين ، ولكن ما الذى حدث بعد ذلك حتى شهد العالم الاسلامى ذلك اليوم المشؤوم الذى يدعى بغارة التتار ؟ ولنقرأ ما كتبه عن ذلك

(١) مبدا مملكة جنكيز خان سنة ٥٩٥ هـ ، واول حملة على حكومة خوارزم شاه كانت فى سنة ٦١٦ هـ ، وقد مات جنكيز خان ٦٢٤ هـ ، فقام ابنائه واحفاده بتحقيق غاياته التى ارادها ، فلما واجهت بغداد الغارة التتارية سنة ٦٥٦ هـ ، كان هولاء حفيد جنكيز خان قائد القوات التتارية واميرها .

(٢) سورة الانفال ٢٥ .

ويترفهون على حسابها ، وكانت حراسة الحرم ، والاشراف على السرائى للخصيان » (١) .

خطا الملوك الخوارزمية :

وقد صدر عن الملوك الخوارزميين نفس الخطا الكبير الذى وقع فيه الحكام العرب فى الأندلس ، ولم يعف عنهم قانون المكافاة الالهى ، وذلك انهم بذلوا كل قواهم فى توسيع رقعة الملك ودعمه ، وقمع الخصوم ، ولم يبذلوا أى اهتمام بتبليغ رسالة الاسلام الى ذلك القسم البشرى الذى كان يعيش بجوار حدودهم ، وكان بنفسه عالما مستقلا ، وبصرف النظر عن الدافع الدينى والواجب الاسلامى ، كان مقتضى الحزم السياسى وبعد النظر ان يعنوا بايجاد الانسجام العقائدى مع هذه الدنيا الانسانية الواسعة ، وبذلك يكونون قد اقاموا حولهم سياجا ، يحفظهم عن ذلك الخطر الذى لم يواجههم وحدهم فحسب ، بل اكتسح المسلمين كلهم .

زحف التتار نحو العالم الاسلامى :

فى نفس هذه الأحوال والزمان تقدم التتار بادىء

(١) جنكيز خان ص ١٤٢ .

المؤرخ الغربي « هيرلد ليمب » ويصدق تماما ما جاء في التاريخ الاسلامي ، انه يقول :

« انفصمت العلاقات التجارية التي اقامها جنكيز خان بين البلدين فجأة ، وكان السبب في ذلك ان قافلة من التجار كانت متوجهة من « قراقورم » الى الغرب ، فلما وصلت الى « اترار » تعرض لها حاكمها الذي كان يدعى باينل جق واسر رجالها ، واخبر ملكه خوارزم شاه بذلك ، وقال ان هذه القافلة لا تخلو من جواسيس جنكيز خان ، وكان هذا الخبر مما يؤيد العقل .

وما ان وصل الخبر الى خوارزم شاه حتى امره بقتل التجار كلهم دون ان يفكر في هذه القضية ، ويتأني في اصدار الامر ، ونفذ امره بقتل التجار الذين جاءوا من قراقورم ، ولما علم بذلك جنكيز خان ، ارسل سفراء الى خوارزم شاه يشكو اليه ما حدث مع هؤلاء التجار ، وانتهر خوارزم شاه الفرصة فقتل رئيس السفراء ، وامر باحراق لحي الباقين ، الذين رجعوا الى جنكيز خان وقصوا عليه القصة وفور سماع هذه القصة سعد جنكيز خان على جبل في « صحراء الجوبي » ليفكر في القضية ، لان قتل رسول المغول كان جريمة لا تغتفر . كان لابد من الانتصار لها حسب ما جرت عادة المغول في مثل هذه الامور .

واعلن جنكيز خان قائلا : « اذا كانت السمائم

لا تحتل وجود شمسين ، فان الارض كذلك لا تحتل وجود ملكين » (١) .

الجزء الشرقي للعالم الاسلامي بين النار والدمار :

وقد ابتدا التتار ببخارى واتوا عليها من كل جانب ، فدمروها حتى عادت كومة من تراب ، ثم توجهوا الى سمرقند واحرقوها وابادوا اهلها ، ولقيت نفس المصير المدن الشهيرة للعالم الاسلامي كهمدان وزنجان ، وقزوين ، ومرو ، ونيسابور ، وخوارزم ، اما خوارزم شاه الذي كان يعتبر الملك الوحيد للعالم الاسلامي واقوى الملوك في عصره ، فكان يعيش في خوف وهلع ، وتنقل وارتحال ، يبحث عنه التتار ويتمقبونه حتى توفي في جزيرة مجهولة .

كان خوارزم شاه قد ضم ولايات فارس وتركستان المسلمة ودولهما المستقلة الى مملكته ، فلما هزمه التتار لم يكن هناك من يقاومهم في هذا الجزء الشرقي ، وقد دخل رعب التتار في قلوب المسلمين ، الى حد ان احد التتار دخل بعض الأحيان في سكة من سكك مدينة حيث وجد مائة رجل من المسلمين فقتلهم كلهم واتى على آخرهم دون ان يتجرا احد منهم لمقاومته .

(١) جنكيز خان ص ١٤٧ .

و ذات مرة دخلت امرأة تاتارية بيتا متزينة بزى الرجال ، وقتلت جميع أفراد الأسرة ، وقد عرف أحد المسجونين الذى كان معها انها امرأة فقتلها ، وقد حدث بعض الأحيان أن تاتاريا أسر مسلما وقال له ضع رأسك على هذا الحجر حتى آتى بالخنجر فأذبحك ، وخضع له المسلم ولم يسعه أن يبرح مكانه ذاك ، ثم آتى التتارى بالخنجر من المدينة وذبحه به (١) .

كانت غارة التتار فتنة عظيمة ، ومحنة كبيرة ، هزت العالم الاسلامى هزا عنيفا ، وتركت المسلمين مبهورين مشدوهين ، واستولى الرعب والخوف على العالم الاسلامى من أقصاه الى أقصاه ، وغلب على الناس اليأس والتشاؤم ، فكأنوا يعتبرون التتار بلاء سماويا ، ومقاومتهم مستحيلة ، وانهمامهم فوق القياس ، حتى سار المثل : « اذا قيل لك أن التتار انهمزوا فلا تصدق » فكل بلاد أو دولة توجهوا اليها عرف انها ابيدت وخربت ، ولم يبق فيها شيء من مقدسات المسلمين الا وانتهكت حرمتها ، فكان اتجاه التتار الى جهة يرادف معنى التدمير والابادة ، والذلة ، وانتهاك الأعراض ، ولا شك أن العالم الاسلامى كله ولاسيما الجزء الشرقى منه وقع تحت هذه الفتنة العمياء على بكرة أبيه ، أن المؤرخ يشغل

(١) من أراد التفصيل فيرجع الى الكامل لابن الأثير ج ١٢ ، ودائرة المعارف للبتانى ج ٦ مادة « تتر » .

بتسجيل كل لون من ألوان الأحداث والوقائع ، وتمر به مناظر كثيرة لآبادة الأمم والبلدان حتى يتعود احتمال كل ذلك ، فيجرب قلمه بتسجيل هذه الحوادث من غير أن يرق لها قلبه ، وتدمع لها عينه ، ولكن المؤرخ الشهير ابن الأثير لم يتمكن من إخفاء شعوره الجريح وتأله النفسى ، حينما وصل الى ذكر حادث التتار ، انه يقول :

« لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها فأنا أقدم اليه رجلا وأؤخر أخرى ، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الاسلام والمسلمين ؟ ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ؟ فياليت أمى لم تلدنى ، وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ، الا انى حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رايت أن ترك ذلك لا يجدى نفعا ، فنقول هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى ، والمصيبة الكبرى ، التى عقت الأيام والليالى عن مثلها وعمت الخلائق ، وخصت المسلمين ، فلو قال قائل أن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم الى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا ، فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها ، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة ، ألي أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا الا بأجوج وماجوج ، وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال ، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة ، فأنا لله وأنا

اليه راجعون ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ،
لهذه الحادثة التي استطار شررها وعم ضررها وسارت
في البلاد كالسحاب استدبرته الريح « (١) .

ويقول مؤلف « مرصاد العباد » : الذي شهد
هذه الواقعة بعينه وما دار في مولده « الري » وموطنه
« همدان » من حوادث فظيعة ومن التخريب والتدمير :

« استولى الجيش التتارى - خذلهم الله ودمرهم -
سنة ٦١٨ هـ على بلاد الاسلام ، لا يعرف نظير لما قام
به هؤلاء الوحوش من الفتنة والافساد ، والقتل والهدم
والاحراق وما ظهر من اولئك الملاحين من فظائع تقشعر
منها الجلود في اى عصر من عصور التاريخ ، لا في
الاسلام ولا في الجاهلية ، فقد قتلوا واسروا في « رى »
وحدها التى هى مولدى اكثر من سبع مائة ألف
مسلم ، ان الفتنة التى اثاروها في العالم الاسلامى ،
والمصيبة التى انزلوها على المسلمين لا تسع الكلمات
ان تصورها ، وهذه الحادثة اغنى من ان تشرح
للناس .

وعياذا بالله ، اذا لم تتحرك حمية الاسلام وغيرته
في ملوك المسلمين وسلاطينهم ، ولم يذكروا أنهم
مسؤولون عن الأمة لقوله صلى الله عليه وسلم :
« الأمير راع على رعيته وهو مسئول عنها » واذا لم

(١) التامل لابن الاثير ج ١٢ ص ١٤٧ - ١٤٨ .

تنبعث فيهم اريحيتهم ورجولتهم لكى يتحدوا على
كلمة واحدة ، وينقادوا لما امرهم الله به في قوله :
« انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وانفسكم في
سبيل الله » واذا لم يستعدوا لبذل النفس والمال
والملك لكى يدفعوا هذه الفتنة ، فان ذلك كله يدل على
ان المسلمين سيفاجئهم الذل والنكسة ، وترتمى معظم
بلاد الاسلام في احضان الكفر ، واخشى ان المسلمين
الذين كانوا لا يحملون الا الاسم ، سيفقدون الاسم
والرسم كليهما نتيجة لما ندعيه ولا نعمل به « (١) .

صاعقة نزلت على العالم كله :

ولم يكن العالم الاسلامى وحده مصابا بهذه الفتنة
التتارية ، وانما العالم المتمدن كله كان متوجلا من هذه
الفارة ، وقد تفشى الذعر والخوف في الامكنة التى لم
يكن يرجى فيها وصول التتار ، يقول « جبن » في كتابه
الشهير « تاريخ انحطاط رومة » :

« حينما اطلع سكان السويد على اخبار غارة
التتار عن طريق روسيا ، تسلط عليهم من الذعر
والخوف ما منعهم عن الخروج الى سواحل انجلترا
لصيد الاسماك ، وقد كان ذلك عادة متبعة لديهم » .

(١) مرصاد العباد (المخطوط ، المحفوظ في مكتبة ندوة العلماء)

وقد تصدى المؤلفون « لتاريخ العهد المتوسط
للكيمبرج » بذكر صدام المغول الشديد الذي كان
سببه جنكيز خان بما يلي :

« لم يكن في وسع الانسان أن يسد سيل المغول ،
فقد تغلبوا على جميع اخطار الصحارى والغابات ، ولم
يقف في وجههم أى شيء من الجبال والبحار ، وشدائد
الطقوس والفصول ، والقحط والأوبئة ، ولم يكونوا
يخافون أى خطر ولا مانع ، ولا كانت هناك قلعة ترد
هجومهم ولا كانت تؤثر فيهم استغاثة من مظلوم ..
نحن نواجه هنا في مجال التاريخ قوة جديدة ، قامت
بتقديم الحل السريع لكثير من القضايا المعقدة السياسية
والوطنية ، التي كانت تشغل العقول في ذلك العصر ،
وقضت عليها كما تقضى الساعة التي تنزل من
السماء على كل ما تصيبه في الأرض ، وقد كانت هذه
القضايا الوطنية والسياسية بالغة في تعقدها الى حد
لم يكن يرجى منه الخلاص لولا أن وقعت عليها هذه
النازلة » .

« ان ظهور هذه القوة الجديدة في تاريخ العالم ،
أعنى قدرة رجل واحد على تغيير حضارة النوع
البشرى ، يتبدى من جنكيز خان ، وينتهى الى حفيده
قوبيلائي خان الذي بدت في عهده آثار الفرقة
والانشقاق في مملكة المغول المتحدة المتماسكة ،

والحقيقة ان التاريخ لم يشهد الى الآن قوة تشبه قوة
هؤلاء المغول » (١) .

تدمير بغداد :

وأخيرا دخل هؤلاء الوحوش بعدما خضبوا ارض
العالم الاسلامى كله بدماء أهله ، وأتوا عليه في بغداد
دار الخلافة الاسلامية ومركز العلم والمدنية الأكبر في
ذلك العصر بقيادة حفيده هولوكوخان ، ودمروها
تدميرا ، ولاشك ان تفاصيل قتل المسلمين في بغداد
وتدميرها طويلة ومؤلمة ، ونستطيع أن نقدر مدى هذه
الوقعة العظيمة ببيان بعض المؤرخين الذين شهدوا
آثارها بأعينهم ، وسمعوا تفاصيلها من مشاهديها ،
يقول المؤرخ ابن كثير :

« وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يوما ، ولما
انقضى الأمر المقدور ، وانقضت الأربعون يوما ، بقيت
بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد ، الا الشاذ
من الناس ، والقتلى في الطرقات كأنها التلول ، وقد
سقط عليهم المطر فتفطرت صورهم ، واننتت من
جيفهم البلد ، وتغير الهواء ، فحصل بسببه الوباء
الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء الى بلاد الشام ،
فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح ، فاجتمع
على الناس الفلاء والوباء والفناء » (٢) .

(١) مأخوذ من « جنكيز خان » ص ١٤٧ .

(٢) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٠٣ .

ويقول الشيخ تاج الدين السبكي :

« فأنزل (هولاكو) الخليفة (المستعصم) في خيمة ، ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء والأماتل ليحضروا المقعد فخرجوا من بغداد فضربت اعناقهم ، وصار كذلك يخرج طائفة بعد طائفة فتضرب اعناقهم ، ثم طلب حاشية الخليفة فضرب اعناق الجميع ، ثم طلب أولاده فضرب اعناقهم ، وأما الخليفة فقيل لهولاكو أن هذا أن أريق دمه تظلم الدنيا ويكون سبب خراب ديارك ، فقام نصير الدين الطوسي (١) وقال : يقتل ولا يراق دمه ، فقيل أن الخليفة غم في بساط ، وقيل رفسوه حتى مات » .

(١) يصدق ذلك ما قاله الدكتور مدرس رضوى في كتابه « أخبار وآثار خواجه نصير الدين طوسي » الذي نشرته جامعة طهران ، فقد اعتبر المؤلف نصير الدين الطوسي مسؤولاً عن هذه الواقعة ، أنه يقول :

« ان مكيدة الطوسي السياسية التي نجحت أخيراً هي أنه أثار هولاكو خان على استئصال الخلافة العباسية ، وتدمير القصر الملكي ، وقد كان هولاكو مأموراً من قبل أخيه منكوكا أن ، بالقضاء على الخلافة العباسية بعد استئصال الباطنية .

ان هولاكو بعث إلى الخليفة المستعصم بالله الأمر بالطاعة ، واستمرت الكتابة على ذلك ، ولكن دون جدوى ، وأخيراً استشار هولاكو زملاءه ، وكانت الأقول يعتقدون بسعد النجوم ونحسها ، فلما أخبره منجم سني المعروف بحسام الدين الذي كان ملازماً لبلاطه بأن =

واستمر القتل ببغداد بضعة وثلاثين يوماً ، ولم ينج إلا من اختفى : وقيل ان هولاكو أمر بعد ذلك بعد القتلى ، فكانوا ألف ألف وثمان مائة ألف ، ثم طلبت النصارى أن يقع الجهر بشرب الخمر ، واكل لحم الخنزير ، وأن يفعل معهم المسلمون ذلك في شهر رمضان ، وأريقت الخمر في المساجد والجوامع ، ومنع المسلمون من الاعلان بالأذان . . هذه ببغداد لم تكن دار كفر قط ، وجرى عليها هذا الذي لم يقع قط منذ قامت الدنيا مثله » (١) .

= هذه ساعة نحس للغارة على بغداد ، وكلما تصدى ملك للاستيلاء على الخلافة في مثل هذه الساعة أخفق في ارادته ، وأصيب بلاء ، فانك أيها الملك اذا أبيت الا أن تغير ، ينقطع المطر ، وتعم الزلازل والعواصف ، ويخرب العالم ، وأشد من كل ذلك أن الملك (منكوكا أن) يهلك ، فلما سمع بذلك هولاكو تردد هنيهة ، واستطلع رأى الطوسي وقال : « ماذا تقول عن مصيرنا اذا أغرنا الآن على بغداد » فقال له الطوسي : ان الغارة على بغداد لا تؤول الا أنك ستحتل محل الخليفة ، ثم دعا هولاكو النجم حسام الدين وطلب منهما المناظرة حول هذا الموضوع ، فقال له الطوسي : لقد قتل آلاف من الصحابة رضی الله عنهم ولم يظهر نساد ، واذا كان هذا مما يخص العباسيين ، فانظر الى طاهر الذي قاتل الامين لما امره المؤمنون بذلك وقتله ، وقتل المتوكل على الله أولاده وغلماينه ، وقتل المنتصر والمتضد الامراء والفلمان ولكن لم يحدث هناك زلزلة ولا طوفان .

(١) طبقات الشافعية الكبرى ج ٥ ص ١١٤ - ١١٥ .

تجمع التراب في نخل بطحاء بالدماء ، ان وجه هذا
النهر تغير وامتعق لونه من هذه الواقعة الهائلة وبدت
التجاعيد في هذا الوجه ، ان النياحة لا تجدر على تراب
هؤلاء الشهداء ، فان اقل جزاء يستحقونه هي جنة
الفردوس ، ولكن الواجب الديني ، وصلة الحب
والعاطفة تجعل قلب المحب يعيش في لوعة
الفراق « (١) » .

التتار في الشام :

توجه التتار نحو حلب الشهباء بعد بغداد ،
وعاملوها معاملة بغداد كما ذكر ابن كثير ، ثم تقدموا
الى دمشق واستولوا عليها في شهر جمادى الاولى
سنة ٦٥٨ هـ .

وقعة عين جالوت وتراجع التتار عن مصر :

وكان التتار متوجهين نحو مصر بعد الشام بحكم
الطبيعة ، وكانت مصر وحدها التي لم تصبها وبيلات
التتار ، وقد كان ملك مصر المظفر سيف الدين قطز
قد تفرس ان التتار يزحفون الى مصر بعد الشام ،
وعند ذلك يصعب التخلص من وطأتهم ، فرأى ان
يخرج من مصر بالجنود ويشن عليهم الهجوم في نفس
الشام ، حتى وقعت الحرب بين عساكر مصر

وقد ظلت بغداد ، على علاقتها ومواضع ضعفها أكبر
مدينة للعالم الاسلامي ، ومركز العلوم والفنون ، ومهد
العلماء والصالحين ، وكانت موضع فخر المسلمين
لكونها دار الخلافة ، فاضطرب لتدميرها المسلمون
كلهم وبكوا عليها ، وقد قرض الشيخ مصلح الدين
سعدى (٢) رحمه الله ، الذي اقام في بغداد كطالب ،
وشهد بهاءها وجمالها قصيدة رثاء تنطق عن قلوب
المسلمين الجريحة ، وشعورهم المكوم في ذلك الوقت ،
نقل فيما يلي ترجمة لعدة أبيات منها يقول :

« ان للسماء كل الحق ان تمطر دما على الارض
لما اصاب مملكة الخليفة المستعصم من زوال وفناء ،
اذا كانت القيامة حقا واقعا يا محمد عليه الصلاة
والسلام ، فاحسر عن وجهك الرداء وشاهد القيامة
بين الخلق اليوم ، لم يدر بخلد أى انسان ابدا ان
حوادث الدهر تأتي بما أتت به اليوم ، افتح بصرك
يا من شهدت عظمة البيت الحرام لتنظر ان الملوك دفنوا
تحت التراب ، واحتل محلهم المفلول والخابان ،
أريقت دماء أبناء عبي النبي صلى الله عليه وسلم على
تلك الأرض ، التي كانت الملوك الكبار يخرون عليها
ركعا سجدا ، وأصبحت دجلة تزيد بدم أهلها ، وهي

(٢) أحد أئمة الشعر الفارسي ، صاحب كتابي « كلستان »
« وبوستان » الخالدين في المكتبة العالمية .

(١) كليات سعدى .

السلطين والملوك ، وبدأ الاسلام يتسرب في نفوس اعدائه ، ويأخذ بمجامع قلوبهم ، ان خضوع هذا الشعب الذي قهر المسلمين امام الاسلام من اغرب الوقائع والأحداث في التاريخ ، فان هجوم التتر على العالم الاسلامي كالجراد المنتشر ، واخضاع العالم الاسلامي كله ، ليس من الغريب المدهش كما يبدو في الظاهر ، فان عالم الاسلام في القرن السابع كان بدوره مصابا بتلك الأمراض والأسقام ، التي تلحق الأمم عامة في أوج حضارتها وشوكتها ، بالعكس من التتر ، ذلك الشعب القوي الأبى الذي نشأ على حياة البداوة ، والهمجية والضراوة ، ولكن الغريب المدهش ان هذا الشعب خضع للمسلمين المفتوحين المقهورين ، واعتنق دينهم في أوج قوته ، وذروة سلطانه ، ذلك الدين الذي فقد كثيرا من سلطانه السياسي والمادى آنذاك ، وكان أتباعه موضع سخرية واحتقار في نظر التتار .

وقد أبدى « أرنولد » استغرابه في هذا الصدد في كتابه المشهور Preaching of Islam « الدعوة الى الاسلام » حيث قال :

« ولكن لم يكن بد من ان ينهض الاسلام من تحت انقاض عظمته الأولى ، وأطلال مجده التالد ، كما استطاع بواسطة دعائه ان يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويحملهم على اعتناقه ، ويرجع الفضل في ذلك الى نشاط الدعوة من المسلمين ، الذين كانوا

الاسلامية ، والتتار في عين جالوت يوم ٢٥ من رمضان سنة ٦٥٨ هـ ، وانهزم التتار شر هزيمة بخلاف ما سبق لهم من الحروب ، فخرجوا منها هاربين ، وتعاقبهم الجنود المصريون فقتلوهم وأسروا منهم عددا كبيرا ، يقول العلامة السيوطي في كتابه « تاريخ الخلفاء » :

« فهزم التتار شر هزيمة ، وانتصر المسلمون وله الحمد ، وقتل من التتار مقتلة عظيمة ، وولوا الأدبار ، وطمع الناس فيهم يتخطفونهم وينهبونهم » (١) .

وهزمهم الملك الظاهر بيبرس بعد انهزامهم في عين جالوت مرات عديدة ، وأخرجهم من أرض الشام وطردهم منها ، حتى بطل المثل السائر « اذا قيل لك ان التتار انهزموا فلا تصدق » .

انتشار الاسلام في التتار :

وقبل ان ينحرف العالم الاسلامي مع هذا السيل الجارف العنيد ، وينطمس معالمه وملامحه ، (كما كان المشاهد للموس عند ذوى البصيرة والخبرة من المؤرخين المسلمين في ذلك الحين) بدأت دعوة الاسلام تنتشر فجأة في هذا الشعب ، ويتحقق على أيدي دعاة الاسلام ما لم يتحقق بالأسنة والرماح ، وبطش

(١) تاريخ الخلفاء ص ٤٢٥ .

يلاقون من الصعاب أشدها لمناهضة منافسين قويين ،
كانا يحاولان احراز قصب السبق في ذلك المضمار ،
وليس هناك في تاريخ العالم نظير لذلك المشهد الغريب ،
وتلك المعركة الحامية التي قامت بين البوذية والمسيحية
والاسلام ، كل ديانة تنافس الأخرى ، لتكسب قلوب
اولئك الفاتحين القساء ، الذين داسوا بأقدامهم رقاب
اهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين في
جميع الأقطار والاقاليم « (١) .

« ويظهر أنه لم يكن من اليسر ان منافسة الاسلام
في مستهل الحكم المغولي لغيره من الديانات القوية ،
كالبوذية والمسيحية كانت عملا بعيد المنال ، اذ ان
المسلمين كانوا قد قاسوا اكثر من غيرهم من ذلك
الاضطراب الذي صحب غارات المغول ، وان معظم هذه
المدن التي كانت حتى ذلك الحين مجمع السلطة الدينية
وكعبة العلم في الاسلام في القارة الآسيوية ، قد اصبح
معظمها اطلالا دارسة ، حتى ان الفقهاء وائمة الدين

(١) الدعوة الى الاسلام - ص ٢٥٠ (ترجمة جماعة من الاساتذة

الاتقياء ، كان نصيبهم القتل او الاسر (١) ، وكان من
بين حكام المغول الذين عرفوا عادة بتسامحهم نحو
الاديان كافة من يظهر الكراهية للدين الاسلامي على
درجات متفاوتة ، فقد أمر جنكيز خان بقتل كل من
يذبح الحيوانات على النحو الذي قرره الاسلام ، ثم
سار على نهجه قوبلائي ، فعين مكافآت لكل من دل
على من يذبح بهذه الطريقة ، واضطهد المسلمين
اضطهدا عنيفا دام سبع سنين ، حتى ان كثيرا من
المعدين وجدوا في سن ذلك القانون فرصة لجمع
الثروة ، واتهم الأرقاء مواليتهم بهذه التهمة لكي
يحصلوا على حريتهم (٢) وقد عانى المسلمون اقصى
ضروب العسف والشدة في عهد كيوك (١٢٤٦ -
١٢٤٨ م) .

« وقد اضطهد أرغون (١٢٨٤ - ١٢٩١ م) رابع

(٢٤١) وقد بلغ من سوء المعاملة الوحشية التي لقيها هؤلاء ،
ان وانضى النخيل من اهالي الصين ، كانوا اذا عرضوا اشياحا ،
اظهروا البشر والحيود في صلف وأعجاب بعرض صورة تمثل رجلا
مسنا ذا لحية بيضاء يجر حصان قد ربط ذيله بريقة هذا الرجل ،
وانما هؤلاء يفعلون ذلك ليظهروا للناس كيف كان يتصرف فرسان
المغول في معاملتهم للمسلمين .

Howorth, vol. i. p. 159.

Howorth, vol. i. p. 165.

Deguignes, vol. III p. 265.

وأصبح التتر يعتقدون الاسلام بجهود الخاقان ، حتى دخلوا في ظرف مائة سنة في دين الله ، وقد سرد إرنولد عدة أحداث تلقى الضوء على هذا الباب ، أنه يحكى قصة شيوع الاسلام في فرع جوجى خان الابن الأكبر لجنكيزخان ، الذى كان يحكم سيرا داردا ، الجزء الغربى من الدولة ، فيقول :

« وكان بركة خان (١٢٥٦ - ١٢٦٧ م) أول من اسلم من أمراء المغول : وكان رئيسا للقبيلة الذهبية في روسيا بين سنتى ١٢٥٦ و ١٢٦٧ م (١) ، وقد قيل في سبب اسلامه أنه تلاقى يوما مع عير للتجار آتية من بخارى ، ولما خلا بتاجرين منهم سألهما عن عقائد الاسلام ، فشرحها له شرحا مقنعا انتهى به الى اعتناق هذا الدين والاخلاص له ، وقد كاشف أصفر أخوته أول الأمر عن تغييره لدينه ، واعتناقه الاسلام ، وحب اليه أن يحذو حذوه ، ثم أعلن بعد ذلك اعتناقه لهذا الدين» (٢) .

« وقد دخل بركة خان في حلف مع ركن الدين الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) سلطان المالك في

(١) ومن الأهمية أن نلاحظ أن نجم الدين مختار الزاهدى . وضع لبركة خان في سنة ١٢٦٠ م رسالة تؤيد بالبراهين رسالة النبى الدينية ، وتدحض ما ذكره المنكرون لهذه الرسالة .
(٢) الدعوة الى الاسلام ص ٢٥٨ - ٢٥٩ (أبو الفارزى ج ٢ - ص ١٨١) .

إليخانات المغول في فارس ، المسلمين في بلاده ، وصر فؤم عن كافة المناصب التى كانوا يشغلونها في القضاء والمالية ، كما حرم عليهم الظهور في بلاطه (١) ، وعلى الرغم من جميع المصاعب ، أذعن هؤلاء المغول والقبائل المتبربرة (٢) آخر الأمر لدين هذه الشعوب التى ساموها الخسف وجعلوها في مواطء أقدامهم » (٢) .

ان هذا الحدث مشار دهشة وعجب ، ولكن استغرابنا يشتد ، حينما لا نجد تفاصيله وافية في بطون التاريخ ، اتنا لا نكاد نعثر على أسماء هؤلاء الأعلام والأبطال الذين حققوا هذه المآثر ، وادخلوا هذا الشعب الهمج في حظيرة الاسلام ، مع أن هذه المآثرة لا تقل أهمية عن أى مآثرة اسلامية في التاريخ ، ولهم فضل لا ينكر لا على رقاب المسلمين فحسب ، بل على الانسانية كلها ، الى أن يأذن الله لها بالفناء ، فانهم أنقذوا العالم من دمار محتوم ، ووضعوه تحت رعاية شعب يؤمن بالله وحده ، ويدعو الى دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

ان دولة جنكيزخان توزعت بعد وفاته الى أربعة فروع ، وبدأ الاسلام ينتشر في هذه الفروع الأربعة ،

(١) وفي القرن الثالث عشر كان ثلاثة أرباع المغول أتراكا .
(Cahon p. 279) .

(٢٤٢) الدعوة الى الاسلام ص ٢٥٦ - ٢٥٧ - ٢٥٨ .

« كان الاسلام اقل انتشارا في بلاد الفرس حيث أسس هولاء أسرة ايلخانات المغول ، ولكي يقوى على صد هجمات بركة خان وسلطان مصر ، تحالف هولاء مع القوات المسيحية في الشرق كملك ارمينية والصليبيين ، وكانت زوجته المحببة اليه مسيحية ، فعملت على استمالة زوجها نحو اخوانها في الدين ، كما تزوج ابنه اباقاخان (١٢٦٥ - ١٢٨١ م) من ابنة امبراطور القسطنطينية ، وقد طمع المسيحيون ، فعلقوا الآمال على اعتناق اباقا خان المسيحية ، ولكن الأيام اظهرت أن تلك الآمال لم تكن الا سرايا خادما ، وكان اخره تكودار أحمد (١) ، الذي اعتلى العرش من بعده ، أول ايلخانات المغول الذين اعتنقوا الاسلام في فارس ، وقد شب على المسيحية ، لأنه كما يحدثنا بذلك كاتب مسيحي من معاصريه (٢) ، « تعمد في صباه وتسمى باسم نقولا ولكنه دان بالاسلام عندما بلغ سن الرشد عن طريق اتصاله بالمسلمين الذين كان كلفا بهم » ، وأصبح مسلما ديناً ، ولما ارتد عن المسيحية ، رغب في أن يسمى محمد خان ، وبذل قصاره في تحويل كافة التتار الى دين محمد وعقائده ، وقد بعث تكودار أحمد نبأً اسلامه الى سلطان المماليك في مصر (قلاوون) في

(١) أوتيكودار على ما يسميه وصاف الحضرة ، وقد سمي أحمد بعد اعتناقه الاسلام .
(٢) (Hayton. Ramusio, Tom II p. 60, C.)

مصر ، الذي بدأ تلك العلاقات الوثيقة من جانبه ، فقد احتفى بشرذمة من جند القبيلة الذهبية يبلغ عددها المائتين ، ولما لاحظ هؤلاء الجند العداء المستحکم بين ملكهم وبين هولاء فاتح بغداد ، وهم الذين كانوا ينضون تحت لوائه ، فروا الى سورية ، حيث ييمون منها شطر مصر ، وهناك استقبلوا بكل مظاهر الحفاوة والتكريم في بلاط بيبرس ، الذي افتعهم بصحة الدين الاسلامي واعتناقه (١) ، وكان بيبرس نفسه في حرب مع هولاء ، وقد هزمه بيبرس وأخرجه من سورية منذ أمد قريب ، وقد أرسل بيبرس اثنين من المغول اللاجئين وغيرهم من الرسل يحملون كتابا الى بركة خان ، وقد نقل هؤلاء عند عودتهم الى مصر ، ان لكل امير واميرة في بلاط بركة خان اماما ومؤذنا خاصا ، وان الأطفال كانوا يحفظون القرآن في المدارس (٢) ، وكان من اثر هذه العلاقات الودية التي قامت بين بيبرس وبركة خان ، أن كثر الوافدون من رجال القبيلة الذهبية على مصر حيث اتخذوا الاسلام ديناً لهم « (٣) .

انه يحكى قصة انتشار الاسلام في ايلخانية الفرع الثاني لأسرة جنكيزخان ، ويقول :

(١) المقریزی (م) ج ١ ص ١٨٠ - ١٨١ ، ١٨٧ .

(٢) المقریزی (م) : ج ١ ص ١٢١٥ .

(٣) الدعوة الى الاسلام - ص ٢٥٩ - ٢٦٠ (المقریزی) (م)

فوجدناه مخالفا لما كان في ضميرنا من اقتفاء الخير العام،
الذي هو عبارة عن تقوية شعار الاسلام ، وأن لا يصدر
عن اوامرنا ما أمكننا الا ما يوجب حقن الدماء وتسكين
الدهماء ، وتجرى به في الأقطار رخاء نسائم الامن
والأمان ، ويستريح به المسلمون في سائر الأمصار في
مهاد الشفقة والاحسان ، تعظيما لامر الله وشفقة على
خلق الله ، فإلهنما الله تعالى اطفاء تلك النائرة ،
ومسكين الفتن النائرة ، وعلام من أشار بذلك الرأي
بما أرشدنا اليه : من تقديم ما يرجى به من شفاء
مزاج العالم من الأدواء ، وتأخير ما يجب أن يكون آخر
الدواء ، واننا لا نحب المسارعة إلى هز النصال
للنضال ، الا بعد ايضاح المحجة ، ولا تبادر لها الا بعد
تبيين الحق وتركيب المحجة ، وقوى عزمنا على
ما رأيناه من دواعي الصلاح ، وتنفيذ ما ظهر لنا به
وجه النجاح ، اذ كان الشيخ قدوة العارفين (كمال
الدين عبد الرحمن) ، الذي هو نعم العون لنا في أمور
الدين ، فأرسلناه رحمة من الله لمن (لبي) دعاه ، وقمعة
على من أعرض عنه وعصاه ، وانقذنا أقصى القضاة
قطب (الملة) والدين ، والأتابك بهاء الدين ، اللذين هما
من ثقات هذه الدولة الزاهرة ، ليعرفوهم طريقتنا ،
ويتحقق عندهم ما ينطوى عليه لعموم المسلمين جميل
نيتنا ، وبيننا لهم أنا من الله تعالى على بصيرة ، وأن
الاسلام يجب ما قبله ، وأنه تعالى القى في قلوبنا أن
تتبع الحق واهله . . فان تطلعت نفوس الى دليل

ذلك الكتاب : « الى سلطان مصر ، اما بعد ، فان الله
سبحانه وتعالى بسابق عنايته وتور هدايته ، قد كان
أرشدنا في عنقوان الصبا وريعان الحدائة ، الى الاقرار
بربوبيته والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة لمحمد عليه
أفضل الصلاة والسلام ، بصدق نبوته وحسن الاعتقاد
في اوليائه الصالحين من عباده وبريته (من يرد الله أن
يهديه يشرح صدره للاسلام) (١) ، فلم نزل نميل الى
أعلاء كلمة الدين واصلاح أمور الاسلام والمسلمين ،
الى أن أفضى الينا بعد أبينا الجليل وأخينا الكبير نوبة
الملك ، فأضفى علينا من جلايب الطافه ولطائفه ،
ما حقق به آمالنا في جزيل آلائه وعوارفه ،
وجلى هذه المملكة علينا وأهدى عقيلتها الينا ،
فاجتمع عندنا في قوريليان

Qurilty

(على الأصح) المبارك - وهو المجتمع الذي تقدح فيه
الآراء - جميع الأخوان والأولاد والأمراء الكبراء ،
ومقدمو المساكين وزعماء البلاد ، واتفقت كلمتهم على
تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير ، في انفاذ الجرم
الغفير من عساكرنا التي ضاقت الأرض برحبها من
كثرتها ، وامتلأت الأرض رعبا من عظيم صولتها وشديد
بطشها ، الى تلك الجهة ، بهمة تخضع لها صم
الأطواد ، وعزيمة تلين لها الصم الصلاد ، ففكرنا فيما
تمخضت زبد عزائمهم ، واجتمعت أهواؤهم عليه ،

(١) سورة ٦ : آية ١٢٥ .

وان من يدرس تاريخ المغول ليرتاح عندما يتحول فجأة من قراءة ما اقترفوه من الفظائع وما سفكوه من الدماء الى أسمى عواطف الانسانية وحب الخير ، التي أعلنت عن نفسها في تلك الوثيقة التاريخية التي كتبها تكودار أحمد الى سلطان المالك في مصر ، والتي يدesh الانسان لصدورها من مثل ذلك المغولى .

وقد احفظ تكودار احمد واضطهاده ، المغول الذين كانوا شديدي الاتصال بهم برغم مخالفتهم في الدين ، وشكوه الى قوبيلائي خان ، متهمين اياه بأنه خالف بذلك سنن أجداده ، وقد قامت في وجهه ثورة على رأسها ابن أخيه أرغون الذي دبر قتله ، ثم خلفه على العرش ، وفي أثناء حكم أرغون (١٢٨٤ - ١٢٩١ م) القصير ، استرد المسيحيون مكانتهم من جديد ، على حين لم يكن بد من أن يلقي المسلمون الاضطهاد ، فصرفوا عن كافة المناصب التي كانوا يشغلونها في القضاء والمالية ، وحرّم عليهم الظهور في بلاطه (١) .

= (أغسطس سنة ١٢٨٢ م) ، وقد بعث به مع رسولين هما قطب الدين شيرازي وأتابك بهلوان ، وقد رد كلاون على أيلخان المغول بكتاب مؤرخ أول رمضان من السنة نفسها (٣ ديسمبر سنة ١٢٨٢ م) ، وقد ورد هذا الكتاب في القلقشندي (ج ٧ ص ٢٢٧ - ٢٤٢) .

De Guignes, vol. III p.p. 263 - 5.

(١)

تستحكم بسببه دواعي الاعتماد ، وحجة يثقون بها من بلوغ المراد ، فليظنوا الى ما ظهر من أمرنا مما اشتهر خبره ، وعم اثره ، فانا ابتدانا بتوفيق الله باعلاء اعلام الدين واطهاره ، في ايراد كل أمر واصداره ، تقديمنا لنا موس الشرع الحمدي ، على مقتضى قانون العدل الأحمدى اجلالا وتعظيما ، وادخلنا السرور على قلوب الجمهور ، وعفونا عن كل من اجترح سيئة واقترف ، وقابلناه بالصفح ، وقلنا : عفا الله عما سلف ، وتقدمنا باصلاح أمور اوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد ذو المدارس ، وعمارة بقاع الدين والربط الدوارس ، وايصال حاصلها بموجب عوائدها القائمة الى مستحقيها بشروط وافقيها . . وأمرنا بتعظيم أمر الحجاج ، وتجهيز وفدها وتأمين سبلها ، وتيسير قوافلها ، وانا أطلقنا سبيل التجار المترددين على تلك البلاد ليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم « ، وهو يلتبس مخالفة سلطان مصر » بحيث تعمّر تلك الممالك وتلك البلاد ، وتسكن الفتنة الثائرة ، وتعمد السيوف البائرة ، وتحل العامة أرض الهوني ، وتخلص رقاب المسلمين من اغلال الذل والهوان (١) * .

(١) وصاب الحضرة ص (٢٢١ - ٢٢٤) .

* وقد ورد هذا الكتاب أيضا في القلقشندي : صبح الأعشى ج ١ ص ٦٥ - ٦٨ ، وهو مؤرخ في شهر جمادى الأولى سنة ٦٨١ =

التركي الصالح توزون (١) فان ملك التتار اسلم
بجهوده ، كتب ابن كثير في وقائع ٦٩٤ هـ ، يقول :

« وفيها ملك التتار قازان بن ارغون بن ايفان
تولى بن جنكيزخان فاسلم ، واطهر الاسلام على يد
الأمير توزون رحمه الله ، ودخلت التتار او اكثرهم في
الاسلام ، ونثر الذهب والفضة ، واللؤلؤ على رؤوس
الناس يوم اسلامه ، وتسمى بمحمود ، وشهد الجمعة
والخطبة ، وخرّب كنائس كثيرة ، وضرب عليهم
الجزية ، ورد مظالم كثيرة ببغداد وغيرها من البلاد ،
وظهرت السبح والهيكل مع التتار والحمد لله
وحده (٢) » .

يقول ارنولد :

« أن اخاه اولجايتو Aljaytu الذي خلفه في
سنة ١٣٠٤م باسم محمد خدابنده(*) Khudabandah
كان على المسيحية دين أمه ، وعمد باسم نيقولا ، على

(١) يسمه ارنولد وغيره من المؤرخين « نورزيك » .

(٢) البداية والنهاية ج ١٢ - ص ٢٤٠ .

(*) ذكر ابن بطوطة ج ١ ص (١٤٣) أن اسمه مختلف فيه ،
وقد قيل خدا (بضم الخاء) ومعناها بالفارسية اسم الله وبنده
ومعناها غلام أو عبد ، وقيل خرينده بفتح الخاء ومعناها بالفارسية
الحصار وبنده ، معناها غلام أو عبد . فيكون عبد الله ، أو غلام =

وقد ظل خلفاء تكودار احمد على وثنتيتهم ، حتى
دخل غازان (١٢٩٥ - ١٣٠٤ م) سابع الايلخانات
واعظمهم شأنًا في الدين الاسلامي في سنة ١٢٩٥ م ،
وجعله دين الدولة الرسمي في فارس .

وقد شب غازان على البوذية قبل اعتناقه الاسلام،
وشيد عدة معابد للبوذية في خراسان ، وكان يسر
كثيرا بمصاحبة الكهنة الذين ينتمون الى هذا الدين ،
والذين كانوا قد وفدوا الى فارس في جماعات كبيرة
منذ بسط المغول سلطانهم في هذه البلاد (١) ، ويظهر
أن غازان كان بطبعه يميل الى تقليب نظره في المسائل
الدينية ، لانه درس عقائد الأديان المختلفة المنتشرة في
زمانه (٢) ، وقد أيد رشيد الدين ، وزيره العالم ومؤرخ
عصره ، بالبرهان صحة اعتقاده الاسلام ، الذي أخذ
على عاتقه المحافظة على شعائره في حماس وغيره طوال
عهده (٣) » .

ان ابن كثير نفسه ذكر اسلام غازان في وقائع
٦٩٤ هـ بارتياح بالغ ، ويبدو منه - ويؤيده في ذلك
غيره من المؤرخين - أن الفضل في ذلك يرجع الى الأمير

1 p. 18 p. 148. (١)

G.:D. Ohsson, Tome IV p. 365. (٢)

(٣) الدعوة الى الاسلام - ص ٢٦٠ - ٢٦٤ .

انه لم يلبث أن أسلم بعد موت امه ، وهو لا يزال شابا في مقتبل العمر ، وذلك بتأثير زوجته (١) ، ويذكر

الحمار ، وقد قيل أن سبب تسميته بهذا الاسم الأخير، أن التتار يسمون الطفل باسم أول داخل الى البيت عند ولادته ، فلما ولد كان أول داخل الزمال (الزمال صاحب الزاملة ما يحمل عليه من الحيوان ، ولعله يريد هنا الحمار فسمى خربنده ، وذكر براون أن غازان لما تولى فر أولجايتو وظل مشردا يرعى الحمير في اقليم كرمان هرمز ، ولذلك أطلق عليه اسم خربنده أو راعى الحمير ، وقيل أيضا أن أبوى الطفل كانا يطلقان عليه اسما قبيحا حتى لا تؤثر فيه عيون الحساد ، ولذلك سمي خربنده كما يسمى العرب أبناءهم بفهر وقلب وصخر ومعاوية ونحو ذلك تفاؤلا بأن يكون الولد في كبره صخرا أو كلبا على عدوه .

وقال ابن الوردي (تاريخ الوردي ص ٢٦٤) أن خربنده اسمه خدابنده ، وأن ملكه شمل بلاد العراق وخراسان والعراق العجمي وآذربيجان وديار بكر .

Hammer-Purgstall . Geschichte Der Ilchanen vol. II p. 182

(١) لا يبعد أن تكون سبابا الاسلام قد قمن في تحويل المغول الى الاسلام ، ويظهر أن المرأة شغلت مركزا من مراكز الشرف والكرامة بين المغول ويمكن أن نأثي بأمثلة كثيرة تؤيد أنه كان لها اثر ظاهر في الشؤون السياسية ، وقد تصدينا من قبل لذكر عدة حالات تبين مدى تأثير النساء في أزواجهن في المسائل الدينية .

ابن بطوطة (١) ، ان سيرة ذلك الأمير ، كان لها اثر كبير في نفوس المغول ، ومن ذلك العهد غدا الاسلام الدين السائد في دولة ايلخانات فارس (٢)

الفرع الثالث من هذه الأسرة كان يحكم البلاد المتوسطة ، وكان مؤسسها جفطائي بن جنكيزخان .

يقول أرتولد :

« وان ما لدينا من المعلومات عن تقدم الاسلام وانتشاره في امبراطورية المغول الوسطى ، التي كانت من نصيب جفطائي ، لا يزال ضئيلا ، وكان كثير من أعقاب هذه الأسرة يستعينون في دولتهم بوزير من المسلمين على الرغم من أنه لم يبد أي ميل الى الاسلام ، وقد ضيق جفطائي على رعاياه من المسلمين بما سنه من القوانين الشديدة الحرج ، التي ضيقت على شعائهم الدينية ، فيما يتعلق بذبح الحيوانات للطعام وفرائض الوضوء ، ويذكر الجوزجاني أن جفطائي هذا كان الد أعداء المسلمين من بين خانات المغول كافة ، وقد بلغ من شدة عدائه لهذا الدين أنه لم يكن يرغب في أن ينطق أحد بكلمة مسلم في حضرته ، اللهم الا اذا

(١) ابن بطوطة - ص ٥٧ .

(٢) الدعوة الى الاسلام - ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

الاسلام بعد في نفوس المغول ، فان بوزن Buzan الذي كان خان المغول في السنين العشر التالية (ولو ان صحة هذا التاريخ غير محققة) ، لم يلبث ان طرد طرما شيرين من العرش واضطهد المسلمين (١) ، على أننا لم نسمع من ظهور اول ملك مسلم في كاشغر الا بعد سنين قليلة ، وكان ضعف اسرة جغتائي قد اتاح لهذه المملكة ان تستقل بحكم هذه البلاد ، ويقول بعض المؤرخين ان اسلام تغلق تيمور خان (١٣٤٧ - ١٣٦٣ م)

ملك كاشغر ، كان علي يد رجل من اهل الورع والتفوى في مدينة بخارى ، يقال له الشيخ جمال الدين ، وكان معه جماعة من التجار ، وكانوا قد اعتدوا على الاراضي التي خصصها ذلك الأمير للصيد ، فأمر بأن توثق ايديهم وأرجلهم ، وأن يمثلوا بين يديه ، ثم سألهم في غضب : كيف جرؤوا على دخول هذه الارض ، فأجاب الشيخ بأنهم غرباء ، ولا يعلمون أنهم يجوسون أرضاً محرمة ، ولما علم الأمير أنهم من الفرس ، قال : ان الكلب أغلى من أي فارسي ، فأجاب الشيخ : « نعم ! قد كنا أخس من الكلب ، وأبخس ثمناً منه لو أننا لم نذن بالدين الحق » ولما راع الأمير ذلك الجواب أمر بأن يقدم اليه ذلك الفارسي الجسور عند عودته من الصيد ، ولما خلا به سأله ماذا يعنى بهذه الكلمات ،

(١) رحلة ابن بطوطة ج ٣ - ص ٤٧ .

أريد بها التحقير والخط من شأنها (١) ، وقد ربت أرغنة Orghana زوجة قراهورلاكو Qara-Hulagu حفيد جغتائي وخليفته ، ابنها على الاسلام ، وتقدم باسم مبارك شاه في سنة ١٢٦٤ م مطالباً بعرش خاقانية جغتائي ، الذي كان مثار النزاع بين أمراء المغول ، ولكن سرعان ما خلع ابن عمه براق خان Buraq Khan ، ويظهر أنه لم يكن لاسلامه أي أثر بين المغول ، فاننا لو رجعنا في الواقع الى أسماء أبنائه ، لا نجد أحداً منهم قد دخل في دين أبيه (٢) ، وقد قيل ان براق خان نفسه « قد أدركته البركة بتلقيه نور العقيدة » قبل موته في سنة ١٢٧٠ م بأيام قليلة ، وأنه تسمى باسم السلطان غياث الدين (٣) ، الا أنه دفن حسب طقوس المغول القديمة ولم يدفن وفق شعائر الدين الاسلامي ، وأن من أسلموا في عهده ارتدوا الى وثنيتهم الأولى ، ولم يتم انتشار الاسلام بين المغول في مملكة جغتائي الا في القرن التالي لاسلام مبارك خان ، ذلك على أثر اسلام طرما شيرين Tarmashirin حوالي سنة ١٣٢٦ م ، وقد ظل المغول الذين اقتفوا أثر زعيمهم متمسكين في هذه المرة بدينتهم الجديد ، وعلى الرغم من ذلك ، لم يتأصل الميل الى

(١) الجوزجاني ص ٢٨١ - ٢٩٧ .
(٢) رشيد الدين ١٧٢ - ٤ ، ١٨٨ .
(٣) أبو الغازی ج ٢ ص ١٥٩ .

وما ذلك الدين ؟ فعرض عليه الشيخ قواعد الاسلام في
غيرة وحماس ، انظر لهما قلب الامر حتى كاد يدوب
كما يدوب الشمع ، وصور له الكفر بصورة مروعة
اقتنع معها بضلال معتقداته وفسادها ، وقال : « ولكني
اذا اعتنقت الاسلام الآن ، فلن يكون من السهل أن
اهدى رعاياي الى الصراط المستقيم فلتمهني قليلا ،
فاذا ما آلت الى مملكة اجدادي ، فعد الى » ، وذلك
ان امبراطورية جغتائي انقسمت في ذلك الوقت الى
امارات صغيرة ، وظلت على ذلك سنين طويلة حتى
نجم تغلق تيمور Tuqluq Timur في توحيد
الامبراطورية كلها تحت سلطانه ، وجمع كلمتها كما
كانت من قبل ، وفي هذه الاثناء كان الشيخ جمال الدين
قد عاد الى بلده حيث مرض مرضا شديدا ، فلما
اشرف على الوفاة قال لابنه رشيد الدين : « سيصبح
تغلق تيمور يوما ما ملكا عظيما ، فلا تنس ان تذهب
اليه وتقرئه مني السلام ، ولا تخش ان تذكره بوعد
الذي قطعته لي » ولم يلبث رشيد الدين الاسنين قليلة
حتى ذهب الى معسكر الخان ، وكان قد استرد عرش
امبراطورية آباؤه ، تنفيذًا لوصية ابيه ، ولكنه لم
يستطع ان يظفر بالثول بين يدي الخان برغم ما بذله
من جهود ، واخيرا لجأ الى هذه الحيلة الطريفة ، ففي
ذات يوم اخذ يؤذن في الصباح المبكر على مقربة من
فسطاط الخان ، فالتق ذلك الصوت نوم الخان واثار
غضبه ، فأمر باحضاره ومثوله بين يديه ، وهناك ادى

رشيد الدين رسالة ابيه ، ولم ينس تغلق تيمور وعده
وقال : « حقا ! ما زلت اذكر ذلك منذ اعتليت عرش
آبائي ، ولكن الشخص الذي قطعت له ذلك الوعد لم
يحضر من قبل ، والآن فانت على الرحب والسعة » ،
ثم اقر بالشهادتين ، واصبح مسلما منذ ذلك الحين ،
« واشرقت شمس الاسلام ومحت بنورها ظلام
الكفر .. ولكي ينشر هذا الدين بين رعاياه اتفق
تغلق تيمور ورشيد الدين على ان يستقبل الملك الامراء
واحدًا بعد واحد ، ويعرض عليهم الاسلام ، فمن قبله
جوزى الجزاء الحسن ، ومن اباه ذبح كما يذبح
الوثنيون وعباد الأصنام (١) » .

اما الفرع الرابع الذي ينتمي الى اجتائي خان
والذي برز فيه من الملوك والقاتحين امثال منجوخان ،
وقوبيلائي خان ، والذي كان يحكم الجزء الشرقي من
امبراطورية التتر ، فقد يقول فيه ارنولد :

« ولا بد ان يكون هناك كثير من انصار النبي قد
انتشروا في طول امبراطورية المغول وعرضها ، مجاهدين
في طي الخفاء لجذب الكفار الى حظيرة الاسلام ، ففي
عهد اجتائي (١٢٢٩ - ١٢٤١ م) نقرأ عن اسلام بوذي
يدعى Kurguz وكان حاكما على بلاد الفرس من
قبل المغول (٢) ، وفي عهد تيمور خان (١٢٢٣ -

(١) الدعوة الى الاسلام - ص ٢٦٥ - ٢٦٧ .

C. D. Ohsson, vol. III 121.

(٢)

١٢٢٨ م) كان آنندا Ananda حفيد قوبيلاني
(١٢٥٧ - ١٢٩٤ م) وأمير كان سو مسلما متحمسا
كما دفع كثيرا من أهل تانجوت Tangut وعددا
كبيرا من الجنود الذين كانوا تحت أمرته الى اعتناق
هذا الدين ، وعلى الرغم من استدعائه الى بلاط تيمور
وبذل الجهد في ارتداده الى البوذية ، أبى الا التمسك
بدينه الجديد ، فألقى به في غياهب السجن ، ولكنه
لم يلبث أن أطلق سراحه بعد قليل خشية ثورة أهالي
تانجوت الذين كانوا شديدي التعلق به « (١) .

وهكذا دخل هذا الشعب (الذي دوخ العالم
الاسلامي كله ، وداس اطرافه بأقدامه ونعال خيوله ،
والذي لم تماسك امامه أى قوة) في دين الله الاسلام
في بضع سنين ، وبدت هذه الحقيقة مرة أخرى ،
واضحة جلية ، ان الاسلام لا يزال يملك اكبر نفوذ ،
ويتمتع بأغرب موهبة في تسخير الأرواح وكسب
الأنصار والأصدقاء ، ان التتر لم يسلموا رسميا
فحسب ، بل برز فيهم عدد كبير من العلماء والفقهاء
والمجاهدين والدعاة والربانيين ، وأهل الصدق
واليقين ، وأدوا دورهم الثمين في حماية حمى الاسلام
في ظروف دقيقة ولحظات عصيبة من التاريخ .

(١) الدعوة الى الاسلام - ص ٢٥٨ (رشيد الدين ص ٦٠٠ -